انتقام

"يعذب الكُتاب أنفسهم، وهم يعلمون أنهم سيعبرون من الدنيا مرة واحدة"

كان يوسف جالسا على مكتبه الصغير في تلك الغرفة الضيقة المطلة على حركة الناس في الشارع. الأفكار مزدحمة في ذهنه، والأشياء مزدحمة في الغرفة، والناس مزدحمون في الشارع إذ يطل عليهم؛ الفكرة الجيدة لا تستسلم بسهولة لتخرج من الذهن من بين مئات وآلاف الأفكار. لذلك نحتاج إلى خلوة، بل خلوات، وإلى تأمل دقيق، بل تأملات، وإلى كوب قهوة سوداء، بل أكواب، وإلى لحظات نستلها من معجم الوقت مثلما تستل الشعرة من العجين، حتى نتمكن من أن نستل من معجم الوقت هذه الفكرة من بين مئات الأفكار.

في تلك الليلة الحالكة، كانت النوافذ تلتصق بإطاراتها الخشبية بفعل هبوب رياح قوية مصحوبة بقطرات باردة من المطر، كان قد احتسى عشرات من أكواب القهوة السوداء، ودخن ثلاث علب من التبغ.

توهج المصباح، الذي علقه خارج غرفته، بالأحمر بعدما أشعله، حتى ينبئ الآخرين بانشغاله بأعماله في المكتب. فقد كانت امرأته، دائما، إذ تحمل إليه القهوة، أو مضغة من الطعام، خوفا على صحته المتدهورة "بالسكري"، تعود أدراجها دون إحداث أي جلبة في الجوار. تعلم أنها ستسمع

منه كلاما لن يروقها حين تدخل إليه حاملة إليه الطعام ككلب جائع حان وقت إطعامه.

لكنها، اليوم، لم تتراجع خطوة إلى الخلف، ولم تعد إلى أدراجها أبدا. فتحت الباب في هدوء تام دون أن يحس بها. ولما دخلت، خارت قواها، واستغربت لما عاينته.

كان يوسف يجلس على مكتبه شبه عريان، وقد أحدث فوضى عارمة في الغرفة. كل كتبه التي في الرفوف ألقاها على الأرض. كوّم ملابسه في زاوية، ضباب السجائر يعم المكان، في الزاوية، التي بها سلة المهملات الحديدية المقعرة، بقايا كتاب قد أحرقه.

الكتاب المحروق لكاتب فرنسي مشهور. هذا ما تبينته زوجته حينما ألقت نظرة في القمامة؛ إذ ترك صفحة الغلاف لم يحرقها.

كومة من الأوراق المستعملة مُزّقت بعصبية، وأخرى هُشِّمت بعنف. وإلى جانبه أخرى مُشطّب عليها بقوة حتى كاد القلم يخترقها. يدُه اليمنى التي تُمسك بالقلم تَرتجف، يده اليسرى ممسكة بمقدمة رأسه بشدة. شفتاه يظهر عليهما أثر تخثّر الدم؛ لأنه أطبق عليهما أسنانه بحثا عن الفكرة.

يعذب نفسه كي يحصل على فكرة قد لا تسمن ولا تغني من جوع. يعذب كل عضو فيه عله يصل إلى تغير في بنية العقلين العربي والمغربي. بماذا ستفيده فكرة ستوضع في إحدى صفحات كتاب قد يقرأ وقد لا يقرأ؟ وحتى لو قرئ، فمن ذا الذي سيحس بالألم الذي اعتصره، حتى استلها من بحر من

الأفكار لجي يغشاه الخطر من كل مكان؟ ماذا لو قُرِئ كتابه، ودخل به السجن، وذاق ضِعف العذاب؟

"ربنا لا تُعذبنا بما فعل السُّفهاء منا"، "ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به". وطاقةُ الكتابة شيءٌ لا يُتصوَّر؛ إنّها شيء فوق الخَيال.

كانت زوجته تَعتصرُ الألم خارج غرفته خوفا عليه؛ فهو لم يبرح هذه الزنزانة منذ أكثر من ثلاثة أيام. يشرب الماء، ويدخن السجائر، ويدخل إلى مرحاض صغير لقضاء حاجته.

وكانت كلما حملت إليه الطعام، ووجدت المصباح متوهجا عادت. وها هي، اليوم، تحمل "الصّينيّة" بكل ثقة و أناة، مستعدة لتلقي أفظع الكلمات النابية حتى تنقذ حياته من موت محقق.

استدراك: داخل الغرفة الصغيرة، يوجد مرحاض صغير محاط بجدار من الألمنيوم والزجاج.

لا يزال منهمكا في استخراج الفكرة، والبحث لها عن مرسى، لكن زوجته أصرت على مقاطعته لما وضعت الطعام على مكتبه الصغير. أحس بوجودها. فجأة، طارت الفكرة/ الأفكار بعيدا. حاول أن يتذكرها عله يقبض على رأسها كما يفعل مروض الحيات. لكن أفكاره تشظت؛ فلا هو أمسك برأسها، ولا هو أمسك بذيلها. انتفض، ووقف في حركة سريعة كعمود، تسمر في مكانه، واخترق نظره الحاد براءتها، ثم أطلق العنان للسانه الحاد السليط. تطاير الزبد من فيه، واحمرت عيناه كثور فحل.

لم يعد قادرا على ضبط أعصابه وحركة يديه المرتعشتين. وحينما أحست زوجته أنها شيء زائد في حياته وأدارت ظهرها لتخرج، أحست بشيء حاد يخترق جانبها الأيمن. لم تتوقع أن يطعنها زوجها بالسكين، الذي كان مع الفاكهة.

يده ترتعش، السكين داخل حتى قبضة يده في أحشائها. بقع الدم تتساقط على السجاد الأخضر، الرياح تدفع نوافذ الغرفة بقوة، زوجته تنطق الشهادة، دمعتان تسيلان على خديها، خرجتا بصعوبة من عينيها، حينما أطبقتهما ثم فتحتهما، شريط من الذكريات يمر بين عينيها: صور ترتدي فيها خاتم الخطوبة وهو (خطيبها) ممسك كتابا، صور أخرى تتسلل بسرعة البرق يجلسان فيها في مطعم فاخر يتناولان العشاء الأول بعد الزواج. كانت هي منهمكة في إشعال الشموع، بينما كان هو يقرأ رواية بضوء الشموع، وكلما أشعلت شمعة أخرى، زاد توهج المكان، واستبشر بوضوح الأبجدية. صور من ليلة الدخلة ترتدي فيها فستانا أبيض، بينما هو غارق، قبل دخولها إلى الغرفة، في القراءة. أخيرا، صور سريعة وهي تتحمل أعباء البيت، وتجمع الفوضى التي يعيش فيها.

كان عليها أنْ تدرك أنّ الكاتب يحتاج إلى عزلة، وإلى من يشاركه ألم الكتابة والقراءة. كان عليها أن تعي أن الكتاب يكتفون في طعامهم بالتهام الكتب، وكتابة أخرى. كل حياتهم عزلة، ومعاناة، وألم، وتمزق، واضطراب.

هي لم تدرك هذا حتى لفظت أنفاسها الأخيرة. هكذا هي الحياة؛ لا نعرف ماذا نريد؟ ولا كيف سنصل إلى ما نريد؟ إلا حينما نتذوق المرارة، ونعتصر الألم، وتشق الكلمات قلوبنا لتترك ألف جرح ونزف.

لقد أدركت أن التفاوت الفكري أشد خطورة من التفاوت الطبقي.

سَلَّمت زوجته فاطمة روحها لله، فيما لم يفق يوسف من وقع الصّدمة إلا بعد شهور. اقْتِيد إلى مخفر الشرطة قصد التحقيق معه، فُتّشت غرفته تفتيشا، وشُرحت جثة زوجته، وعُلّقت نتائجُ التشريح ورفعُ البصمات، من على السكين، لأسبوع. ولما ظهرت، وجدوا بصمات زوجته على السكين. فقد ضحّت بحياتها مرتين: مرة حين تزوجت كاتبا، ومرة حينما أمسكت بيد السكين بعد أن طعنها حتى تبقى بصماتها هي.

إن الذين يحبوننا يضحون لأجلنا حتى في اللحظات الأخيرة. أدرك، الآن، أن ما قام به لا يستحق ذلك؛ فأن يسجن نفسه لأجل فكرة سيسخَر منها بعض المراهقين، أو ينتقدُها بعض المبتدئين، ويُصدروا على منوالها أَحْكَامَ قِيمَةٍ، لا يستحِقّ.

كان عليه أن يحب زوجته كما الجميع، في مجتمع لا يؤمن بالفكرة، كان عليه أن يبني بيتا دافئا، ويوفر الأمان لزوجته، لا أن يكون مصدر الخوف وجلب التوتر والشكوى. كان عليه أن يضع قطعة سكر في فنجان القهوة المُرَّة، ويمزجها بالحليب؛ فالحياة تحتاجُ إلى هذه الإضافات التي تزينها، وتزخرفها، وتُشَذِّبُها، وتُهذِّبها..

لماذا يصِرّ أن يكتب حينما ينام الناس؟ ألم يجعل الله الليل لباسا؟ والنهار معاشا؟ فلماذا يصر على عكس الأمور؟

الكُتّاب يسعون إلى خرق القوانين الإلهية، والطبيعية، والكونية. يريدون أن يكونوا مختلفين ومُميّزين. لكن ما فائدة التميُّز في أوطان تحرق التميز؟

إن الكُتّاب شرذمة نرجسيون. يفكرون في أنفسهم، وقد يتخذون ظهور الآخرين سلالم لبلوغ المراتب. إنهم مرضى بحاجة إلى فهمهم، وعلاجهم، أو اسْتِئْصَالهم. هي حقيقة مرة، لكن عليهم تقبلها.